تجربتي مع الغرب: مقتطفات من المعرفة والحبّ والحرب

رجاء نعمة

اللقاء الأول: عام الخبز الأبيض والهجرة

بدأت تجربتي مع الغرب في زمن سابق على التجربة وفي مكان بعيد عن الجزء الشمالي من القارة. كان ذلك عام ١٩١٨ وحين وضعت الحرب العالمية أوزارها ودخلت جيوش الحلفاء إلى المدن اللبنانية، وصار جنودها يتجوّلون في الشوارع تجوّل المنقذين ويتقرّبون من الأطفال ويوزعون عليهم الحلوى والبسكويت... وكانت أمي من بين هؤلاء الصغار. كانت على ما يبدو سعيدة وكان الناس أيضاً سعداء باستقبال الفاتح العادل المتمدّن الذي جاء يحرّرهم من جور الدولة العثمانية. «الدولة الظالمة البالية» التي بسطت سلطانها الغاشم على العالم العربي أكثر من أربعمائة سنة توّجتها بإعدام عدد من المناضلين في سوريا ولبنان على يد أحمد باشا الجزار في أوائل العصر.

كلّما حكت أمي عن انتهاء عهد وبدء آخر اغرورقت عيناها بالدمع. وذكرت أنهم منذ ذلك الوقت بدأوا يأكلون الخبز الأبيض بدل الأسمر وأنها هي نفسها بدأت بالذهاب إلى المدرسة لتتعلم اللغة العربية وشيئاً من الفرنسية. وظلّت فيها إلى أن تزوّجت أبي.

في ذلك العام، عام الخبز الأبيض إذا صحّ القول، عادت البواخر غير الحربية تمخر المحيطات والبحار لتمرّ واحدة منها بسواحل لبنان فتحمل من سكانه من كان لديه القدر الكافي

من الحلم والطموح والمغامرة للهجرة إلى القارة الحديثة التي منذ القرن الماضي والناس يتناقلون أخبار مَن هاجر إليها. ركب أبي الباخرة مع غيره من سكان بلاد الشام. لم يكن أتمَّ عامه الثامن عشر ولم تكن الشجاعة تنقصه كما لم تكن الحرب قد تركته بالطبع طريَّ العود ليحجم عن مثل هذه المغامرة ويلحق بأخيه الأكبر، عمي، الذي سبقه إلى أمريكا قبل الحرب. ركب الباخرة أسوة بالمهاجرين متفقاً معهم على الوسيلة مختلفاً في الهدف. فمنذ البدء لم تكن الهجرة هدفه بل إعادة أخيه المهاجر إلى الوطن كان الهدف.

لم يكن يعرف أخاه بالمعنى الحقيقي. بالكاد كان يتذكر وجهه. وحين رست الباخرة في مرفأ مرسيليا نزل أبي منها ليمكث فيها شهوراً طويلة. كان السبب في ذلك أن الباخرة ألغت موعدها. مما دفع ببعض المهاجرين إلى تغيير طريقهم والذهاب إلى أفريقيا الغربية بدل أمريكا. وعبثاً حاولوا إقناع أبي بأن يحذو حذوهم.

ونظراً لصغر سن أبي آنذاك وصعوبات الوصول إلى نيويورك وحده، جاء عمي لملاقاته في مرسيليا. هكذا وعلى أرض فرنسا جرى لقاء الأخ بأخيه، ليتابعا طريقهما معاً إلى أمريكا ويرفض عمي العودة فيقضي حياته فيها حتى مماته، فيما عاد والدي بعد بضع سنوات إلى الوطن لا يفكر بالهجرة بتاتاً لولا حرب جرت لاحقاً.

ذكريات مثيرة: طقم إفرنجي وانبهار

عاد أبي ليكون أوّل رجل في البلدة يلبس الطقم الإفرنجي!

رغم أن والدتي كانت أسوة ببنات جيلها ترتدي الحجاب التركي الذي يغطي ملابسها الإفرنجية، فإنها شيئاً فشيئاً كما كانت تقول وبمجيء الانتداب صارت تابعة لموضة العصر.

أُدرك الآن وربما سائر أخوتي وأخواتي أيضاً أننا لم نكن نسأل والدي بما فيه الكفاية عن إقامته في أمريكا وعن نمط الحياة هناك. من ناحيتي اكتفيت بما كان يرويه بنفسه عن عمران وتخطيط مدني ونظام وتقدم تكنولوجي ومصانع ضخمة وآلات متطوّرة وغسالات آلية وجلايات تجلي الصحون ونساء حرّات وغيرها من الحكايات المتداولة على ألسنة المهاجرين في أوائل القرن. وكوني صغرى أخواتي ونظراً للفارق الهام في عدد السنين التي تفصل عودته من أمريكا عن ولادتي، ولمسافة ممتدة بينه وبيني قوامها تسع أخوة سبقوني إلى الدنيا واستنفدوا الوقت والطاقة على التواصل

المباشر مع الأم والأب... كان لديّ إحساس بأن تجربة أبي في أمريكا تمتّ إلى قرن طواه الزمن.

لم يكن أبي يتكلّم الإنجليزية رغم معرفته البسيطة بها والتي في حكايته عن تجربته هناك كان يعود إليها ببعض الجمل والعبارات لإضفاء الطابع المحلي على الموقف. يبدو أن اللغة العربية لم تكن قد وُجدت بعد بالنسبة لأمريكا. فحين أحضروا لأبي في المؤسسة التي كانت تساعد المهاجرين، لائحة باللغات التي يمكنه انطلاقاً منها تعلم الإنجليزية، أشار أبي إلى اللغة التركية.

ما زالت صورته وهو في أمريكا معلّقة في بيتنا مع عمي وأولاده. وفي صغري كان يلفتني أن ربطة العنق التي يضعها في الصورة (البابيون) لم تكن تشبه ربطات العنق الأخرى التي يرتديها الرجال أي الكرافات. بابيون وطقم إفرنجي. وكان أيضاً من الأوائل الذين أرسلوا بناتهم إلى المدرسة الفرنسية في مدينتنا الصغيرة الواقعة على ساحل المتوسط جنوب لبنان: صور. والذين أرسلوهنّ في ما بعد إلى مدارس داخلية رهبانية أو غيرها ليتابعن تعليمهن خارجها. كان، غالباً، يلازمني إحساس خفيّ بأن والدي مختلف عن سائر رجال البلدة، لحدّ ما يكبر ويصغر حسب المواقف. وحسب بُعد المواقف أو قربها من التقاليد السائدة والأطراف المعنية بها. وأن هذا الاختلاف في ذهني يعود إلى هجرته السابقة.

كان يهتم بالاطلاع ويهوى المطالعة، رغم أن تحصيله العلمي لم يتجاوز بضع سنوات أمضاها في المدارس التركية ينشد فيها الأناشيد مع أقرانه للسلطان محمد رشاد. وفي الحرب العالمية الثانية كان من النادرين في البلدة الذين وثقوا بأفضلية الحلفاء على الألمان. كان لديه إعجاب واضح بقوّة أمريكا ومصدّقاً زعمها الحرية ونصرة الشعوب، وواثقاً بتفوقها على الغرب. وحين يتحدث عن إنكلترا يقول إنها أصغر من أن تكون ولاية من ولايات أمريكا وأن الإنجليز والفرنسيين يباهون بالقوة أكثر مما هم بالفعل أقوياء. وكان لا يفتأ يُكبر دور أمريكا في إنهاء الحرب العالمية الثانية. وحين انتصر الحلفاء كان تيار «الحرية والعدل» بالنسبة له قد انتصر.

والغريب أن الإنجليز حين دخلوا البلدة كان لديهم لائحة بأسماء رجال البلدة الذين «يعرفون الإنجليزية» فاستدعوهم ووالدي من بينهم للتعرف إليهم. وربما لتهنئتهم! لكن لم يحدث أن أياً من هؤلاء أقام علاقة مع الدخلاء الجدد الذين لم يكن أبي يكن لهم الحب والتقدير. كان والدي قد خبر خبث الإنجليز عن كثب. فبعد عودته

من أمريكا عمل تاجراً. وكان بحكم عمله كثير السفر إلى حيفا والشام إضافة إلى بيروت. كانت حيفا على مرمى حجر من مدينتنا وعكا أقرب منها. وكان في أسفاره يمكث فترات في فلسطين فشهد واحداً من أطول إضرابات العالم أي إضراب الـ ٣٦ وشهد تواطؤ الإنجليز مع اليهود. وكان له في فلسطين أصدقاء من جميع الطوائف بمن فيهم اليهود. وكان دائم الجدل معهم حول أطماع هؤلاء. ثم وبوقوع النكبة واحتلال فلسطين والهجرة تأكّد، كغيره من العرب، عداؤه للغرب، وعدم ثقته بهم كمخلّصين. وبدأ يفكر ثانية بالهجرة بعد أن سُدّت أبواب فلسطين التي كانت أسواقها مصدراً رئيسياً لتجارته. ولم تكن بيروت قد ازدهرت بعدُ ازدهارها الشهير. هكذا في تلك الفترة هاجر ثانية إلى أفريقيا الغربية ليمكث فيها بضع سنوات ويعود.

كان أبي يصغي إلى صوت أمريكا وإلى البي بي سي. مما كان يضايق أخوتي خاصة وأن الحركات الوطنية كانت آخذة في الصعود والناس جميعاً يستمعون إلى إذاعة صوت العرب كمرجع للمعلومات والمواقف. وكان أبي يختلف مع أشقائي ذوي الميول المتنوّعة القومية واليسارية حول المواقف السياسية. كنت بطبيعة الحال أميل لرأي أشقائي نظراً للجو العام ونظراً لعلاقتي المباشرة بهم فيما علاقتي بوالدي كانت أشبه بعلاقة المواطن بالحاكم.

كنت بسبب البي بي سي وصوت أمريكا وحذر والدي من مصداقية الإعلام العربي السائد، أكاد أظن أنه مناصر طبيعي للغرب. إلى أن وقع الحادث الجازم. ذاك اليوم كنت وحدي معه في البيت وكان هو يصغي إلى الإذاعة وإلى رجل يخطب وإلى جماهير تصفق. ورأيته ينفعل انفعالاً عظيماً لم أره من قبل. لدرجة أنه لم يتمكن من متابعة الاستماع فهرع إلى الحديقة ثم عاد منها ليرجع إليها ثانية مهرولاً وهو يردد: رجل عظيم. رجل عظيم.

لم أفهم لمَ كان يهرول وهو يكرّر عبارة رجل عظيم. لكني عرفتُ أن الخطبة كانت خطبة جمال عبد الناصر وهو يعلن تأميم قناة السويس. الخطبة التي طوّبت والدي ناصرياً إلى حين وفاته. والتي بعدها لم أتأخر كثيراً لأرى المشهد الذي سيظل محفوراً في ذاكرتي... حين عدت من المدرسة وجدت أمي وأخوتي وأخواتي جالسين قرب الإذاعة يبكون، يبكون الخسارات والبطولات التي دارت في العدوان الثلاثي على مصر. وأبي في غرفته حزين لا يحكي. كانت ثقة والدي بالغرب قد تزعزت تماماً فيما ازدادت قناعته بالعدل الأمريكي بعد إنذار أيزنهاور للغزاة بالانسحاب.

ما الذي يجعل الذاكرة تستهل حوارها عن التجربة مع الغرب بالحروب؟ أظن أنه في تلك المرحلة خطفوا بن بلا ورفاقه من الجوّ وأن حرب الجزائر وقضية جميلة بو حيرد كانت المناسبة لي وللفتيات في بلدتنا للإسهام في العمل العام. شاركت بالمظاهرات أهتف لجميلة ضد الفرنسيين والإنجليز وكنت في الرابعة عشرة من عمري. كان ذلك هو النشاط الوحيد الذي يُسمح به لفتاة في جو محافظ بمخالطة الشباب ومشاركتهم الأنشطة.

نعم لمَ الحروب هي التي تستيقظ داخلنا عند الحديث عن الغرب؟

الغرب وحكايات الحب

الغريب في الأمر أن حروب الغرب كانت مناسبة أيضاً لاكتشاف الحب. لطالما تحدثت شقيقاتي عن حكاية كانت وقتها على درجة عالية من الإثارة. عن إحدى الراهبات الفرنسيات في مدرستهن وكيف استيقظ الدير ذات يوم ليجد أنها خلعت ثوب الرهبنة ولفّته في ملاءة وهربت. حدث هذا في نهاية الحرب العالمية الثانية حين علمتْ الراهبة أن الشاب الذي تحبه وكان قد جاء إلى لبنان محارباً وانقطعت أخباره عنها، هو في حقيقة الأمر في عداد الناجين والعائدين منها.

لم أكن قد سمعت بقصص حب مماثلة. رغم أني منذ صغري كنت قارئة نهمة للحكايات الشعبية المترجمة وحكايات السندباد لكن مثل تلك القصص كانت خيالية وتدور في أماكن وأزمان لا علاقة لنا بها. لكن أن تقوم راهبة تدرّس أخواتي وتعيش في مدينتنا وقد نذرت نفسها ليسوع بما قامت به، فهذا ما نقل مسألة الحب إلى حيّز الواقع والمشاعر الحقيقية على الرغم من أن المعنيّة بالحكاية فرنسية، نقلها إلى المكان الذي ولدتُ فيه في زمن مقاربٍ لولادتي.

اللغة الفرنسية: الباب إلى الثقافة

كان أحد أخوتي منذ طفولتي قد سافر إلى فرنسا للدراسة، وكانت رسائله تصلنا لتصف الحياة هناك. وحين رجع كنت قد دخلتُ الجامعة لتبدأ نوعية قراءاتي تتغير. أكثر فأكثر صرت أقرأ باللغة الفرنسية التي كانت وما تزال لغتي الثانية مثل معظم أبناء وبنات جيلي قبل الغزو الثقافي الأمريكي. قبل ذلك كانت غالبية مطالعاتي بالعربية. وبدخولي مرحلة جديدة من حياتي صارت المطالعة بالفرنسية هي القاعدة

والاستثناء للغة الأم. لم تعد القراءة فقط للتسلية أو المتعة. بل صارت في غالب الأحيان مهمة، رغم إمتاعها، تهدف إلى إثراء وتنمية المعرفة وتحفيز التفكير. كانت جسراً لبناء حياة واقعية تماثل نمطاً آخر نحيا أصداءه في لبنان. كانت باباً نطلّ منه على نظريات حديثة تؤكد لنا أن العالم يتغيّر ويتحوّل من عالم إلى آخر أكثر عدلاً وإشراقاً... وتتغير فيه العلاقات. كل العلاقات. تلك التي تحكم الشرق بالغرب والمستعمِر بالمستعمَر والبلدان القوية بالضعيفة والحاكم بالمحكوم والمرأة بالرجل. وتبشر بحق المرأة في الحرية. حرية النفس والجسد والحياة.. وحقوق غير منقوصة مثل التي تمتع بها الرجل عبر العصور. لا بل وأكثر من ذلك فالمقولات تدعو إلى تحرير الجنسين معاً من تقاليد قديمة تمكنت من تكريس علاقة إستلابية تدمر السعادة وتقتل الإبداع. قرأنا كثيراً في هذه الموضوعات وكثيراً في مقولات تعيد النظر بالمسلّمات وتحاول فهم تاريخ العالم ونشوئه وتطوره واحتمالات هذا التطور في المستقبل.... وأخرى تحاول فهم النفس البشرية وتعقيداتها لا على ضوء التفسير القديم القائم على إدانة الميول الشيطانية بل على ضوء المعرفة والقبول والنمو. قبول دوافع الإنسان وضبطها عبر الامتثال والتماثل وتنمية القدرات والشخصية.

كما معظم أبناء جيلي قرأنا كل هذا باللغة الفرنسية وبظهور البنيوية وعلم الدلالات برزت الفرنسية لغة العصر والفكر وتزامنت شعلتها مع حركة ٦٨ لتتكرس فرنسا بلد الإشعاع والحرية. لم يكن للثقافة الأمريكية آنذاك كيانها أو اعتبارها المميّز في المنطقة. ولا لمناهجها التعليمية مقارنة بالمناهج الفرنسية. خاصة مناهج العلوم الإنسانية والآداب. فيما كنا نقرأ فرويد ونحن لم نبلغ العشرين بعد، كان طلاب الجامعات الأمريكية يقرأون بعض المقاطع عن نظرية فرويد. وفيما كنا نتناقش في الفلسفة الجدلية والوجودية كانت موضوعات مثل هذه شبه غائبة عن مناهج الجامعات الأمريكية. كان تكوّن لدينا يقين أن علم الجامعات الأمريكية يتقن فروع العلوم والهندسة والطب فيما تبقى الميادين الأخرى فيه تبسيطية.

أضف إلى ذلك أن دائرة الثقافة الفرنكوفونية كانت الدائرة المسيّسة المنتعشة بالجديد من التيارات الفلسفية والأدبية والفنية وبالجدل ذي الشعلة المستمرة. ولا أظن أن ندما أصابنا بسبب إقبالنا على هذه الحركات، على الأقل بالنسبة لغالبية من أعرف. فخلاصة التجربة، إذا كان للتجربة خلاصة، هي أننا في هذا المدّ المتأجج تعلّمنا التفكير الحرّ وصرنا مطالبين بحرية التفكير.

تعلمناه باللغة الفرنسية التي صارت لغة الثقافة والمسائل الحميمة والحب

وربما الشتائم والتأفف غير المسموح. ما همّ لو كان البعض يتقن هذه اللغة إتقانه اللغة الأم أو يتقنها لحد أقل ونسبي. المهم أنها صارت لغة الشأن الخاص والعام، لغة العلم والأدب والفن إضافة إلى كونها منذ صغرنا لغة العلوم والرياضيات. صارت اللغة الفرنسية وكأنها اللغة الأولى. حتى أني لما أردت أن أكتب روايتي الأولى ورغم أن لغتي الأولى التي أتقنها هي العربية، وجدت صعوبات في التعبير بها عن بعض الموضوعات. من خلال الفرنسية عشنا مع سيمون دو بوفوار في صراعها مع عائلتها لتخرج عن صورة الفتاة العريقة في الأصل والتقاليد ولتمضي في تجربتها الحرّة مع سارتر الذي أوّل ما التقته لم تستظرفه. لكنها ما لبثت أن انبهرت بأفكاره. عشنا عبر مؤلفاتها في مقاهي السان جرمان والحيّ اللاتيني ومونبارناس وبعض مناطق فرنسا. عشنا تجمعات المثقفين ووقوفهم بوجه الحروب وخلاف كامو وسارتر ووقوف هذا الأخير مع الجزائريين.

هكذا حين ذهبت إلى فرنسا رحت إليها بدون الصدمة الحضارية التي يُحكى عنها. كنت عشت في بيروت في أوج ازدهارها الثقافي. وفيها شاهدنا فرق الباليه العالمية والمغنين وغيرهم ممن جاؤوا إلى مهرجانات بعلبك. وبينهم آراغون الذي وقع لي على ورقة لا أدري أين صارت الآن. كنا قرأنا شعره وشغفنا به وبحكاياته عن إلسا وعيون إلسا ما همّ لو كانت صحيحة أو من بنات الخيال الدعائي. وغنينا أغنيات البيتلز وإن كنا حرمنا من رؤيتهم بعد أن أعيدوا بأمر من كمال جنبلاط من المطار «لخلاعة» الموضة التي يحملونها. وشاهدنا مسرحيات معدة من المسرح الواقعي والسريالي: بريشت ويونيسكو وبيكيت وشكسبير وراسين وموليير وغيرهم. واكبنا أفلاماً رائعة لمخرجين عظام خاصة الإيطاليين: فيلليني وأنطونيوني وبرتوليتشي وبازلوني وزيفرللي ومن سبقهم مثل فيسكونتي وفيتويرو دي سيكا وغيرهم. وموجة الأفلام الفرنسية الجديدة التي بمرور الوقت اكتشفت عدم انجذابي الخاص إليها لطغيان الفكر فيها عموماً على الصورة والدراما. وإن كان فيلم «امرأة ورجل» الذي أصغينا طويلاً لموسيقاه العذبة قد أثر برومانسيته على نمط العلاقات كغيره من الأفلام. شاهدنا أمهات الأفلام في نوادي السينما وكانت المتاحف العالمية بدأت تأتي إلى بيروت لتعرض تحفها فتتيح لنا رؤية «المفكر» لرودان في قصر سرسق. وبعد هزيمة الـ ٦٧ ورغم شعلة الغضب بسبب تواطؤ الغرب وأمريكا استمرت الفرنكوفونية في احتلالها عرش الثقافة في لبنان واستمرّ تأثرنا بها. هكذا وقبل أن نذهب إلى الغرب كان الغرب قد جاء إلينا.

جاء عبر مجلاتهم وصحفهم: الأزمنة المعاصرة والموند وغيرها... وعبر مجلاتنا أيضاً: مجلة شعر ومواقف ومجلّة الآداب والطريق وصفحات جريدة النهار الأدبية. وغيرها من الصحف التي صارت مرآة ثقافية لما يحدث في العالم. وقرأنا بروست وستندال ودستويفسكي وفلوبير، وآخرين أكثر حداثة كمارغريت يورسينار ودوراس، وغيرهم كثيرون. وكان تأثرنا بالرواية الفرنسية والمسرح تأثراً بيّناً ويكاد في مرحلة ما يكون شبه حصري لولا الروائيين الروس وبعض الأمريكان الذي وصلوا إلينا من خلال الترجمات. وأدت هيمنة الفرنكوفونية إلى تأخر نسبي في اكتشافنا عالم شكسبير، فيما كنا اطلعنا على دقائق عالم راسين وموليير وكرنييه وفكتور هوغو وفولتير وروسو وغيرهم. حفظنا مقاطع طوال من كتاباتهم ومثلنا مسرحياتهم. وحين كتبنا وعلى غير وعي منا كنا نعيد أنماط هذه الأعمال، أنماطاً لا يعيبها البناء المحكم ولا دراسة الشخصيات ولا التخطيط المسبق بل شيء آخر نسبي لحد ما لم أكتشف أبعاده إلاّ بالانقلاب العظيم في الفن الروائي الذي رنّ صداه في العالم بدخول روائيي أمريكا اللاتينية الساحة ليتوّجوا عليها ملوكاً وليفتحوا لنا دروباً أخرى أكثر ملاءمة لشخصيتنا وتاريخنا وقصصنا الشعبي والمخيّلة الحرّة الثرية والعميقة الجذور في الفن الحكائي الشفهي، وفي تداخل المتخيّل بالواقعي والأسطوري. هذا ليس تقليلاً من عظمة الفن الروائي الغربي. من ناحيتي ما زلت أرى أن كاتبة عظيمة مثل مارغريت دوراس قد أبدعت في وصفها دائرة المشاعرة المتهوّرة التي تحاصر الشخصية في لحظة العشق الأولى. أبدعت في ذلك إبداعاً متواصلاً بدءاً بـ«موديراتو كنتابيلا» وصولاً إلى «العشيق»، الرواية المفتاح التي فسرت حالات النفي في سائر رواياتها. ورغم هذا أعتبر أن أدب أمريكا اللاتينية هو الهزّة التاريخية التي حرّرت كتّاب البلدان «الأخرى» من سطوة الرواية الغربية والتي من شأنها أيضاً التأثير الإيجابي على هذه الأخيرة. وغيرها عمالقة آخرون توّج منهم جيمس جويس كاتب القرن.

التجربة الشخصية

ذهبت إلى فرنسا في أوائل السبعينيات بلا الصدمة الحضارية كما ذكرت. رغم أني حين وصلت باريس وجدتها مدينة ساحرة ورهيفة وكنت لا أملّ من السير في شوارعها وتأمل شغل الدانتيل الذي يزين واجهات عماراتها وشرفاتها. ساحرة ولسحرها طغيان وجاذبية. كانت أصداء حركة الـ ٦٨ طازجة. هذه الحركة التي

تركت بصماتها في نفوس جميع المطالبين بالتغيير في العالم. لطالما تساءلت لم لهذا الحد بصمت نفوسنا؟ لعل السبب أنها المرّة الأولى التي شعر فيها أبناء العالم الثالث أن الفوارق تكاد تلغى وأنهم صاروا أصحاب حق إنساني وأن المواطنة لم تعد حكراً على المواطنين. نعم كل واحد صار صاحب حق ونفسه عامرة بالثقة.

بين الأعوام ١٩٧٢ و١٩٨٠ عشت ست سنوات في فرنسا. بدأتها بهذا الإحساس الأصيل بالحق الإنساني. يعززه نظام التعليم المجاني الذي فتح لي الأبواب الحرّة للاستمتاع بمحاضرات كبار مفكري وأساتذة فرنسا. من رولان بارت إلى كريستيفا ومن سوريانو إلى أستاذي جمال بن شيخ. تتلمذت دون أن أتتلمذ بالمعنى الفعلي أو الضيق فحضور المحاضرات، أياً كانت حق لمن يشاء تلميذاً كان للأستاذ أو لغيره.

أصحاب حق: شعور تعززه الأثمان الزهيدة التي كنا ندفعها في المدينة الجامعية أو لحضور السينما والمسارح والعروض والمتاحف. لنتذوق نتاج حضارتهم وحضاراتنا. وندخل المكتبات العامة: أمهات الكتب القديمة والجديدة بمتناول يدك. أصحاب حق وثقة لدرجة بالكاد كنا نشعر بأنفسنا غرباء، الأطباء في المستشفيات يتواطأون معنا للعلاج المجاني أو شبه المجاني. ولأبنائنا الحق في ارتياد مدارس الحيّ أسوة بأي فرنسي.

أصحاب حق وثقة وإن كانت بمرور الوقت رائحة العنصرية تتناهى إلى الأنوف ذات الحساسية. كنت أول زيارتي لفرنسا ألاحظ الخجل الفظيع الذي يعتري الفرنسي إذا ما لاحت له في الأفق تهمة تنعته بالعنصرية. كيف وهو حفيد روسو وفولتير والثورة الفرنسية وقوانين نابليون؟ شيئاً فشيئاً بدأ الخجل من تهمة العنصرية يضعف. ليكثر الحديث عن «الغرباء» والشخصية «الوطنية». وذات يوم صارحتني صديقة وهي من الحزب الإشتراكي كم تمقت «هذا التافه» عبد الناصر وكم لا يسعها نسيان الإهانة التي وجهها إلى الفرنسيين في خطبة له إبان حرب السويس حين نعتهم بـ «المعطّرين» تقول هذا وآثار الإهانة الكلامية، لو حدثت حقاً، لكان عمرها خمسة وعشرين عاماً. وربما أنها خجلت حين ذكّرتها، بمآسٍ متتالية، أفظع بكثير من تهمة العطور، أصابتنا بسبب الغرب والتزامه الدائم بإسرائيل.

قال لي إبني وكان في الثانية عشرة من عمره ويرتاد إحدى مدارس الحيّ في الدائرة ١٣ في باريس، إن زميلاً له في الصف كلّما وقف ليتكلم همهم الآخرون:

محمد... غضبت وأجبته: إسم محمد إسم جميل وله دلالة عظيمة. فقال إبني: هذا صحيح لكن الولد لا يُدعى محمد بل أسامة.

بدأت أضيق بكل هذا. باريس ساحرة لكني أضيق بالحملات المجانية اليومية التي تبالغ بالسخرية من الإنسان العربي، وتشوّه صورته في المجلات والإذاعة والتلفزيون. هذا الأسمر ذي الزوجات الأربع الذي ينزل بهن من الطائرة معتمراً الكوفية والعقال آتياً لتبذير أمواله بلا حساب. لمَ الأسمر العربي مدعاة سخرية لزواجه من أربع؟ لمَ لا تنشغل الصحافة هذا الانشغال بالأفريقي الذي يعدد الزوجات حتى ولو كان مسيحياً؟ لم لا ينشغلون هذا الإنشغال بعادات «مثيرة» كثيرة لدى الشعوب الأخرى؟ كل هذا بسبب هزيمة الفرنسيين في حرب الجزائر؟ ألن يسعهم النسيان؟

ضحك أحد الأصدقاء الفرنسيين، وكان من ذوي الفكر الحرّ، وقال: ليس بسبب الحرب الجزائرية بل بسبب الحرب القادمة؟

ـ القادمة؟

ـ نعم القادمة. حرب البترول. لا بدّ أن يأتي يوم تُقام فيه حرب بسبب منابع البترول. هل تظنين أن الغرب قادر على مثلها بلا موافقة الرأي العام؟ وهل تظنين أن الرأي العام يُبنى بين ليلة وضحاها؟

نحن إذن في مرحلة التحضير!

يومها اعتبرت كلام الشاب، رغم منطقه، من المبالغات. كان ذلك في نهاية السبعينيات. قرابة عشر سنوات بعد ذلك سارت بضع مظاهرات واهنة في شوارع فرنسا تحتج على غزو الخليج. على الكذبة التي يدْعون الرأي العام إلى تصديقها. فهم قادمون لإحلال العدل وإرساء السلام وتأديب من سوّلت له نفسه الإخلال بهما.

ساروا بضع مئات ممن لديهم الإيمان بوحدة المعايير وإلغاء الفوارق وعدل القرارات. لم تأبه أي حكومة لمسيرتهم ولم يهتز قرار الغزو ولا الحصارات التي تلته والتي ما نزال نشهد آثارها الدموية كل عام.

عندما حاولت

طلب مني تجمع «باحثات» أن أكتب عن تجربتي مع الغرب، ورغم أني كاتبة روائية ومتأثرة بالأدب الغربي وباحثة في التحليل النفسي للأدب، هذا الفرع الذي

نشأ وازدهر في فرنسا كما ذكرت... إلاّ أني ترددت. لا لأن الموضوع لا يهمني بل لكونه بالغ الأهمية لدرجة أنه يصعب عليّ الخوض فيه.

عن أي غرب سأكتب وعن أي تجربة؟ تجرية الأدب أم تجربة الحياة؟ تجربة الحب أم تجربة الحرب؟ عن الأمس أم عن اليوم؟ عن الغرب ذي الضمير المستيقظ الذي يمنحنا الثقة أم عن غرب المصالح، الصلف، الذي يطوّر الأسلحة ويتفنن في إبادة أجناس معيّنة من سكان الأرض؟ وماذا عنا وما هي خطتنا لمشروع العدل والتواصل بيننا وبين الناس المختلفين، غربيين كانوا أم شرقيين؟

وماذا عن الغد؟

هل سيأتي يوم، كما قرأت، يضعون فيه اليد على خصوصية ما في نسيج خلايانا تمكنهم من الطريق «الكيمائي»، للقضاء علينا؟ أم أن الأحرار، أصحاب الضمائر اليقظة والوعي، سيهبّون لينقذوا ما تبقى من التواصل بين البشر ولينقذوا أنفسهم بالدرجة الأولى والأخيرة!